

رحيله

إنه حالة استثنائية لصورة عالم الاجتماع العربي المواكب بجرأة ونزاهة وعمق لتحوّلات المجتمع العربي في انهياره نحو الهاوية. هكذا بدأنا الجلطة التي باغتته أول من أمس. على الهواء مباشرة. جاءت كنتيجة طبيعية للأهوال التي عاشها المفكر العراقي

فالح عبد الجبار... مشرّح الثنائيات العراقية!

خليفة صويلح

يمثل المفكر العراقي فالح عبد الجبار (1946- 2018) حالة استثنائية لصورة عالم الاجتماع العربي المواكب بجرأة ونزاهة وعمق تحوّلات المجتمع العربي في انهياره التدريجي نحو الهاوية. من الشغف بالماركسية وترجمته «رأس المال»، اضطر تحت ضغط مطارق التخلف العربي أن ينقل مشاغله الأهمية إلى تشريح القبيلة والعشيرة وصولاً إلى المذاهب الإسلامية. وهو بذلك يغلق الدائرة التي افتتحها مواطنه علي الوردي، رائد علم الاجتماع العراقي. كان كل الحراك اليساري الذي شهده العراق والمنطقة في خمسينيات القرن المنصرم وما تلاه، عاد إلى نقطة الصفر بسطوة الانقلابات العسكرية والاستبداد والحرركات الإسلامية.

هكذا وجد هذا المفكر نفسه أمام أسئلة تحتاج إلى تفكير وحفريات عميقة لحرارة الأرض الأولى مجدداً، بأدوات معرفية هي حصيلة اشتغالاته الأكاديمية من جهة، وانخراطه بالمشروع اليساري العراقي، من جهة ثانية. بدأ أن الجلطة الدماغية التي باغتته أول من أمس، على الهواء مباشرة، أثناء مقابلة تلفزيونية، نتيجة طبيعية للأهوال التي عاشها الرجل. ذلك أن العراق الحلم تلاشى إلى كابوس، فكان عليه أن يشرّح أحوال خريطة البلاد الممرّقة، في إعادة نظر شاملة، بدءاً من العلمانية التي يؤمن بها، والحركة الشيوعية العراقية، متهماً اليسار بالانفصام عن الواقع والتعالي عليه، والانحدار خلفاً، من دون أن يفقد الأمل تماماً بديمقراطية قيد النضوج. كما سيتوقّف ملياً حيال صعود الحركات الجهادية ومآلها وأسبابها في كتابه «دولة الخلافة: التقدم إلى الماضي». وإذا به يعيد سبب صعود هذه الحركات المتطرفة إلى «الدولة العربية الفاشلة» ببرامجها التنموية المحتضرة، وحصار المجتمع المحلي بين صعود الإسلام السياسي وهيمنة التيارات التكفيرية بصورتها العسكرية أو السياسية، ومعزّجاً على عناوين أساسية مثل «اختلال بناء الأمة وتعدد الهويات والنزاع»، و«التاريخ اللاتاريخي ودولة اللادولة»، و«الحياة اليومية في مجتمع الخلافة»، و«المال



انكفاً عن مقاربة الأسئلة الراهنة في المجتمع بضغط ايدولوجيات متنافرة وعدم تطور بنية المدارس والجامعات ما أدى عملياً إلى انطفاء شعلة الفكر التنويري لمصلحة التفكير الطائفي.

تتمن أهمية فكر فالح عبد الجبار في انتباهاته الحادة إلى الثنائيات التي تتحكم باليات التفكير العراقي، والعربي عموماً، مثل «العقلانية والخرافة»، و«القبيلة والسلطة». وفي ما بعد الاحتلال الأميركي للعراق، أضاف إلى هذه الثنائيات «العقل والخوذة»، كان كل تمظهرات المجتمع المدني تخيّرت من الشارع تماماً. وما يميّز مثل هذه القراءات، تجاور أكثر من سردية في بناء محكم وأصيل ومشعب معرفياً وتاريخياً. يقول في تحليله لمنظومة العنف: «العنف في المجتمعات الحديثة هو عنف الدولة لأنها هي التي تحتكر وسائل العنف مثل الجيش والشرطة والسجون وكل وسائل القوة، ولأنها جهاز يحتكر السلاح بحسب تعريف عالم الاجتماع الألماني ماكس فيبر، والدولة عندما لا تكون ممثلة لسكانها تكون علاقتها بالمجتمع علاقة قمع وعنف. لذلك كانت هنالك جرعات مستديمة من عنف الدولة تجاه المجتمع، وهذا العنف يتشربه المجتمع ويكمن فيه، إذ إنه لا يتسرب بل يكمن في المجتمع ويحاول أن يجد له منافذ أو قنوات للخروج».

ويعيد عالم الاجتماع ورئيس «مركز الدراسات العراقية» في بيروت، هذا الانسداد التاريخي للخرائط العربية، إلى استبقاظ الهويات الصغرى وتفاقم الصراع والتعصب المذهبي والفكري بقوله «العلمانيون لا يدرسون التراث، والفقهاء لا يدرسون العلوم الحديثة، وكلاهما يتطرف في تعامله مع النص الديني»، مؤكداً على هوية ثقافية كونية تنبذ التفكير المطلق: «لا أفهم كيف أن الأرض لا تدور حول الشمس، أو تقديس الشخصيات المتوفاة، وصولاً إلى قدرة التشفي بجولها أو بقايا جثتها؟ كيف يمكن لجسده بالمعنى الفيزيائي الطبي أن يكون خالياً من البكتيريا والجرائيم والفيروسات؟ هذه هلوسة وجنون». رحل فالح عبد الجبار وهو يردّد «التركيز على اختصاص ضيق هو انزعاج»، لذلك ترك نوافذه مفتوحة على حرية السجال.

وأسباب العنف الطائفي. في كتابه الأخير «كتاب الدولة.. اللوثيان الجديد» (2017)، يستكمل حراثة ما بدأه الباحث حنا بطاطو في تحليل المجتمع العراقي، معزّزاً البعد النظري لمفهوم الدولة المتوخّشة وطبقاتها، أو الدولة التئبن التي تفتقر أبناءها، وذلك التناغم بين الربعية النطبية والدكتاتورية. وهو بذلك يستكمل بتعميق أشمل ما عالجه في كتابه «التوليتارية». ورغم أن «سوق الأفكار العربية مغلق» حسب قوله، إلا أن صاحب «الديمقراطية المستحيلة» لطالما وجد منافذ للسجال والحضور الحيوي، متكئاً على ثقافة عميقة، ولغات متعددة مثل الألمانية والإنكليزية، ومواكبة دائمة للمشهد الثقافي والفكري، ناعياً تراجع علم الاجتماع العربي الذي

في صراع المصالح والإيديولوجيات. غادر فالح عبد الجبار العراق في أواخر السبعينيات إلى لندن، بحثاً عن أوكسجين آخر، فدرس علم الاجتماع، لكن كتابته لم تنغلق على ما هو أكاديمي صرف، إنما انفتحت

التفت إلى إخفاقات العراق الجديد وهزائم الديمقراطية وأسباب العنف الطائفي

على مشكلات وهموم وأسئلة الشارع العراقي العريض، مازجاً في متنها الصرامة العلمية بما هو يومي وملح وخلاق، كأنه لم يغادر العراق في غليانه وجحيميته وأماله. هكذا التفت تدريجاً إلى إخفاقات العراق الجديد وهزائم الديمقراطية

المقدّس والمال المدنّس»، بالإضافة إلى شهادات ومقابلات ميدانية عن «الولاء والاستنابة وإعادة التثقيف»، ومحنة المجتمع المحلي أمام كل هذه المعضلات. وتالياً، فإن فكرة التطرف «مثال لتسييس وأدلجة الهويات الجزئية المعتمد على خزين تاريخي». لم يعد سؤال «ما بعد ماركس» ملخاً، أمام سؤال «العمامة والأفندي»، في قراءة موسوعية تنطوي على أبعاد سوسيولوجية للنهوض الشعبي في عراق القرن التاسع عشر، وصولاً إلى الصدام مع الديكتاتورية البعثية، لنجد أنفسنا أمام تراجيديا تنفّز نحو التاريخ العراقي بشموليته، بوصفه حركات احتجاج مستمرة، بين ما هو مقدّس وديوي، وفضاء متناقض تختلط في نسيجه العنابات المقدسة، وبورجوازية المدن، وطبقة المثقفين، وزعماء القبائل والعشائر،

متوقّع. حين سأل أحد الأطفال عن سعر ربطة الخبز، سكت الحريري برهة. إنه سؤال صعب! فكّر قليلاً وأجاب «يمكن 500 ليرة»، هنا ارتفعت سخرية الأطفال وتحول الحريري إلى «مضحكة». جواب كشف كم أنه بعيد كل البعد عن حياة اللبنانيين وواقعهم وهمومهم المعيشية والاقتصادية. بعض المتابعين رأى أن رئيساً لا يعرف سعر ربطة الخبز، هو غير قادر على إدارة بلد يتخبّط يميناً وشمالاً بالمشاكل الاقتصادية، فيما تسأل آخرون: هل يأكل الحريري «الباغيت» أو «الكرواسون»؟ كان بإمكان جنان ملاط أن تقطع المشهد عبر المونتاج لكنها تعلم جيداً أسس اللعبة التلفزيونية جيداً، وتعرف أن هذا الجواب سيسهل قبلة الحلقة، خصوصاً أن البرنامج برمته قائم على الترويج للضيف بشكل غير مباشر. صحيح أنه تمّ استغلال الأطفال بشكل واضح في هذه اللعبة، لكن جواب الحريري خفّف من وطأة الهجوم على البرنامج.

من لغة جسده، ظهر الحريري مرتبكاً أمام الأطفال الذين بدا عليهم الارتياح أكثر من الضيف نفسه. في البداية، بقي رئيس الحكومة جالساً لدقائق على الطاولة شارداً بالأطفال، لتأتيه لاحقاً الإشارة في أذنه (ربما من

ميزانية شركة «سعودي أوجيه» التي خسرها الحريري. في البداية، «اشتتهى» المشاهد أن تكون مدرسة «الشانفيل» التي صور فيها «دقّ الجرس» هي مدرسته الحقيقية التي تختصر المدارس اللبنانية. الصّف كان مفعماً بالألوان الفرحة، ومزّيناً بالكتب «المهندسة» والمرتبة، بما لا يعكس أبداً الصورة الحقيقية لمدارس لبنان، خصوصاً الرسمية التي لن تكون طبعاً مكاناً لتصوير البرنامج. كما أحضر الطلاب من مدارس خاصة (تحديداً من بيروت) معروفة بأقساطها العالية، وأهمل فريق العمل طلاب الرسمية الذين يشكلون شريحة كبيرة من اللبنانيين. بالنسبة إلى الضيف أي الحريري، فقد كان «مثلاً» بارعاً وحفظ الأجوبة جيداً. صحيح أنه كان صريحاً في بعض النقاط وقال أنه لم يكن يتوقّع يوماً أن يعمل بالسياسة، لكن جوابه كان «رمادياً» دوماً، من دون أن يأخذ موقفاً في أيّ سؤال يطرح عليه. فهو لا يزال على علاقة جيدة مع السعودية، ويجب جميع السياسيين، وعلى علاقة طيبة بأخوته. أجاب على غالبية الأسئلة بأسلوب «شفاف متصنع». فبين الدول، يختار لبنان للعيش فيه، لأن «لبنان الوطن!» الترويج السياسي للانتخابات كان عنوان الحلقة، لكن في المقابل عزى «دقّ الجرس» الحريري بسؤال غير

زكية الديراني

كشفت قناة mtv أوّل من أمس (كل أحد 21:45) عن برنامج «دقّ الجرس» (إنتاج جنان ملاط) الذي يعدّ النسخة العربية من برنامج Au tableau الفرنسي. أصرت ملاط أن يكون رئيس الحكومة سعد الحريري ضيف الافتتاح، بخاصة أنه أثار جدلاً كبيراً باستقالته المزعومة من الرياض قبل أشهر. على أبواب الانتخابات النيابية في أيار (مايو) المقبل، وجد الضيف في «دقّ الجرس» فرصة لـ «تلميع صورته» والترويج لمشروعه ولـ «تيار المستقبل»، وإن كان الترويج قد تم بطريقة غير مباشرة وباستغلال... الأطفال.

في بداية الحلقة، كشف الحريري عن بعض التفاصيل حول علاقته بالديه، وكيف تعيش أمه العراقية المستقرة حالياً في الأردن، وطلاق والديه في صغره. كما عزّج الطلاب الذي يلعبون أيضاً دور المحاورين، على حياة الحريري الاقتصادية وخسارته ثروة تفوق المليار دولار. طرحوا العديد من الأسئلة الجميلة عن حياة السياسي التي لا يعرفها المشاهد، لكنهم بدوا كأنهم يسمعون دروسهم في بعض الأماكن، على غرار سؤال حول

على الشاشة

الشيخ سعد بـ«كوكب تاني»